خطاب المحبة

" مقاربة نقدية للمكان في الشعر السعودي المعاصر"

د . منى المالكي

أستاذ مساعد أدب ونقد حديث- قسم اللغة العربية وآدابها –
كلية الآداب – جامعة الملك سعود – المملكة العربية السعودية - الرياض

توطئة

يظل الشعر من الإنسانية الخالد الذي تحيط به المعرفة ولا تدركه الصفة؛ فهو مع اقترابه الشديد من مراكز الوجع في بؤرة الروح يبقى بعيدا عن الامتلاك الكامل عصيبا على الإذعان يعجز القارئ والناقد على سبر أغواره مهما تصور أنه قادر على ذلك. ومهما اقتربت من الشعر فإنك - في الواقع – لا تزداد إلا بعدا، ومهما دنوت من بهائه فإن خلاصة هذا البهاء تمعن في المراوغة حتى تعيد الكرة من جديد تجد في النهاية أنه قد منحك بعضه رغم أنك منحته كلك؛ فهو لا يقبل قارئا بنصف عقل ولا يدني من رحابه لما شقا بنصف القلب هو لا يقبل إلا أن تمنحه كلك؛ حتى يعطيك بعضه مقابل هذا الكل إنه حب الفناء والتفاني والمعاناة والمكابدة التي تنتج المعاينة بعد ذلك؛ فمن المعاناة يتجلى الكشف وتدنو من المعاينة لتبقى القصيدة واصلة بين العلوي والسفلي بين السماوي والأرضي، بين المطلق الذي لا يحد والمقيد الذي كله قيد تبقى وحيا يهبط من نبع سماوي على مخيال الشاعر المرهق؛ فيذعن عن بهائها ويكون واسطة بين المجهول الذي أطلق عقالها وبين الحياة التي نتلقى هذا البهاء دون دور واضح يمكن أن ينبه الشاعر نفسه. ومهما حاول الباحثون والنقاد وعلماء النفس تفسير الإلهام، فإن كلامهم يظل محض اجتهاد يقترب من الجوهر أو يبتعد لكنه يظل بعيدا عن ملامسة الحقيقة الكاملة:

لا دور لي في القصيدة
غير امتثالي لإيقاعها
حركات الأحاسيس حسا يعدل حسا
وحدسا يترل معنى
وغيبوبة في صدى الكلمات[1]

المكان والإبداع الشعري

وبالقدر ذاته، فإن المكان يمارس سحره على الذات المبدعة ويشكل أحد المؤثرات التي تترك طوابعها القوية على الإبداع بوجه عام، لأن المكان وتشكيلاته المتعددة يلعبان دورا لا يمكن إنكاره في إنتاج المعنى.

ويأتي الدور الذي يلعبه المكان في نظرية الأدب تابعا للدور الكبير الذي يلعبه في " تكوين هوية الكيان الجماعي وفي التعبير عن المقومات الثقافية، وقد أثرت العوامل البيئية على المفاهيم الأخلاقية والجمالية التي تحرك الشعوب في جميع أرجاء العالم"(٢)

وقد امتلك المكان – وفقا لذلك – حضورا قويا في فضاءات النص الشعري منذ أقدم العصور حتى إننا لا نبالغ إذا افترضنا للمكان دورا في الإبداع الشعري ذاته بشكل من الأشكال ودرجة من الدرجات؛ فهو عنصر جوهري في النص الشعري بما يوفره للنص من إطار ظرفي يمنح الخطاب الشعري طاقات نفسية وأبعادا اجتماعية بالغة الظهور وإن خفيت على النظرة العجلى. ولعل أبرز الشواهد على ذلك حضور الأطلال في النص الشعري الجاهلي على نحو يكاد يشكل معادلا موضوعيا للكيان النصى ذاته ولعل النظر إلى علاقة المكان الطلل بالمقدمات الغزلية التي طرز بها الشاعر الجاهلي خطابه تثير تساؤلا حول " أثر المكان في تشكل خطاب المحبة " في نصوص الشعر القديم وهو ما تسعى هذه الدراسة إلى محاولة اقتفاء أثره في النصوص من الشعر السعودي المعاصر. وهو ما يعد شاهدا لا جدال فيه حول أثر المكان في الإبداع الشعري بوجه عام.

وبغض النظر عن فكرة التخاطب في مفهوم المكان وما ينطوي عليه من أبعاد كلاسيكية متمثله في : الطول والعرض والارتفاع وكذلك بغض النظر عن المفاهيم التي تعبر عن المكان جزيئا كالأعلى والأسفل والقريب والبعيد وما شابه ذلك، فإن تناولنا للمكان يعتمد على فكرة الإطار الذي يشكل ظرفا للتجربة الشعرية على

مستوى الوجود الواقعي في ضور العلاقة التي تربط الشاعر بمدينته وهي علاقة تنعتق من إطار المطلق وتتسم بقدر كبير من الخصوصية والتفرد وهو ما كان مثار اهتمام العديد من الدراسات التي أكدها فاعلية المكان في تجاوب الشعراء السعوديين وهو ما " جعله عنصرا تكوينيا مهما من عناصر تشكيلهم للقصيدة الشعرية"(٣)

وبما جعل للمكان حضورا على المستوى الجمالي، والدلالي في بنية الخطاب الشعري السعودي في كثير من السياقات.

وفي هذه الدراسة محاولة لرصد حضور المكان في الخطاب الشعري على الصعيد الإنشائي لثلاث تجارب شعرية يمثل كل منها سياقا متفردا في سياق علاقة الشاعر/ النص بالمكان/ المدينة غير أنني قبل الخوض في رصد تجليات هذه العلاقة أود الإشارة أولا إلى أمرين ذوي بال:

- **الأول:** أن تناول أثر المكان في تشكيل خطاب المحبة في عدد من قصائد الشعر السعودي المعاصر ما هو إلا واحد من تجليات العلاقة بين الشاعر والمدينة بوجه عام وهي علاقة ذات تجليات متعددة وفقا لتباين التجربة وما يتصل بها من مواضعات فنية واجتماعية، فأحمد عبدالمعطي حجازي يرصد علاقته بالمدينة على ضوء علاقته ببقية النص التي شكلت في وعيه ما يشبه اليوتوبيا التي:

تنام على مشارفها ظلال تحيل
ومئذنة.. تلوى ظلها في صفحة الترعة
رؤى مسحورة تمشي
وكنت أرى عناق الزهر للزهر
وأسمع غمغمات الطير للطير(٤)

لكن هذه العلاقة يطرأ عليها التحول؛ لتحل المدينة محل القرية فتبدل الحال، ويضحى المكان / اليوتوبيا مدينة أخرى "بلا قلب"

ويتجلى دفء العلاقة بين الشاعر والمكان / القرية/ اليوتوبيا من خلال رصده لحظة التحول من هذا الدفء إلى صقيع المدينة:

ملاكي : طيري الغائب
حزمت متاعي الخاوي إلى اللقمة
وفت سنيني العشرين في دربك
وحن علي ملاح وقال اركب
فالقيت المتاع ونمت في المركب
وسبعة أبحر بيني وبين الدار
أواجه ليلى القاسي بلا حب
وأحسد من لهم أحباب
وأمضي .. في فراغ بارد مهجور
غريب في بلاد تأكل الغرباء(٥)

إن علاقة الشاعر بالمكان رهن تحولات مباغتة تفرضها الأوضاع الاجتماعية المرتهنة بالسعي المجهد لخلق اللقمة التي صار الشاعر يبحث عن ظلالها في صقيع المدينة وهو ما جسد علاقة – أقل ما توصف به – أنها مأزومة ؛ لأن الشاعر لم يتخلص من ثنائية القرية / المدينة التي جعلها الشاعر فريسة للمفارقة " بين جمود المدينة ورهبة شوارعها، وزحامها وخلوها من نظرة الإشفاق على عكس القرية"(٦)

وفي تجربة أخرى غير بعيدة عن تجربة حجازي كان البعد الصراعي غائبا عن علاقة الذات الشاعرة بالمكان لدى صلاح عبدالصبور وهو – مثل حجازي – ريفي غادر إلى المدينة غير أن محتوى التجربة عند عبدالصبور كان مغايرا؛ إذ جدت قصائده خطابا غلبت عليه المحبة المعللة وبقدر ما تتسم به موهبة عبدالصبور من قراءة كانت تلك التجربة التي جسدت صلته بالمدينة التي أحبها على القدر نفسه من الاستثناء والقراءة حتى صارت علاقتها ضربا من التماهي الذي تذوب فيه الحدود بين الذات والآخر هنا يضحى المكان مبكيًا ومطهرا ونبع إلهام:

لقاك كلما اغتربت عنك

بروحي الظامي

وأن يكون ما وهبت أو قدرت للفؤاد من عذاب

ينبوع إلهامي

وأن أذوب آخر الزمان فيك

وأن يضم النيل والجزائر التي تشقه..

والزيت ةالاوثاب والحجر

عظامي المفتتة

على الشوارع المسفلتة

على ذرى الاحياء والسكن(٧)

- الثاني: أن التجارب الإبداعية التي جسدت علاقة الذات الشاعرة بالمكان التجأت إلى حيلة تسعى إلى مد الصلات بين الذات المبدعة والذات المتلقية؛ فإن الذات المبدعة – من خلال عنونة النص تمارس نوعا من المقصدية في خطاب الذات المتلقية من خلال وضع عنوان للنص " بمعنى أن العنوان من جهة المرسل هو ناتج تفاعل علاماتي بين المرسل والعمل. أما المستقبل فإنه يدخل إلى العمل من بوابة العنوان"(٨)

وحضور المكان عندنا في القصائد الشعرية أو في الدواوين يحمل دلالته على دور المكان في تحريك بواعث الإبداع الشعري وإنشاء النص ومن ثم دوره في انتاج ما يموج به النص من خصائص دلالية ووسائل فنية. وهو في الوقت ذاته يكون عاملا مؤثرا في تكوين الرؤية التي تحملها النص وهي رؤية الشاعر الدالة على موقفه من قضايا أخرى تحتل حيزا أكبر من الوعي الشعري والإنساني بوجه عام.

كما أن حضور المكان عنوانا في النص الشعري لا يخلو من دلاته على هيمنة المكان على جانب لا ينكر من التجربة الشعرية المعاصرة كما جسدته تجارب

الشعراء: حمزة شحاته في قصيدة : جده ، وغازي العتيبي في قصيدة : أنت الرياض، وجاسم الصحيح في قصيدة: حبيبتي الأحساء.

الوله المؤرق في قصيدة جده لحمزة شحاته

اتجه المكان قي قصيدة جدة إلى انتاج خطاب يفوح بالوله، لكنه وله مؤرق بهواجس شتى تجلت في خطاب الشاعر كما تجلت في مستوى آخر من الخطاب المسكوت عنه.

ويمكن رصد أبرز المحطات التي تجسد من خلالها خطاب المحبة من خلال بؤرة المكان في قصيدة جدة من خلال ما يأتي:

١. خطاب العاشق والامعان في الوله

بمعنى خطاب العاشق في الانتماء إلى المكان /المعشوق/ جدة وهو ما يتتبع الإعلان عن فنائه الكامل في سياق هذا الوله المحور الذي يفارق مقتضيات العقل؛ وهو خطاب ينطلق من فكرة المبالغة والادعاء اللذين يشيان بطاقة حب كبرى تقود الخطاب في هذا السياق:

النهى بين شاطئيك غريق والهوى فيك حالم ما يضيق
ورؤى الحب في رحابك شتى يستفز الأسير فيها الطليق
ومغانيك في النفوس الصدي سات إلى ربها المنيع رحيق
ايه يا فتنة الحياة لصب عهده في هواك عهد وثيق
سحرته مشابه منك للخلد ومعنى من حسه مسروت

وفي خضم هذا الإمعان فإن الشاعر يستمد من المكان دلالات بالغة الرهافة، فهو يصور نفسه واقعا تحت أثر السحر ليحلق بتجربته خارج إطار الحس، فيجعل هذه الحالة من السحر مستمدة من الجنة التي تبقى ببعض ظلالها على المكان/ المشوق هنا يضحى خطاب المحبة واقعا بين مكانين، الأول: مطلق وهو الجنة ، والثاني: مقيد وهو المدينة التي دفع خطاب المحبة الشاعر إلى رؤية مشابه من الخلد تجوى بين دروبها.

٢. عتاب الوامق

انتج المكان في قصيدة شحاته خطابا عاشقا لكنه كما سبقت الإشارة عشق مؤرق دفع الشاعر إلى الإعراب عما يجول بخاطره من هواجس عاتبة؛ فليس ثمة عاشق يقبل في عشقه شريكا وليس ثمة محب يقبل أن يرى معشوقه دائرا في فلك آخر غير فلكه وهو ما جعل العتاب واحدا من تجليات خطاب المحبة بأثر من المكان:

لي ماض لم أنسه فيك قد نمص شجو غروبه والشروق
تتناجى أصداؤه في روابيـ ك إذا عارها الخيال الطروق
كيف أنسيته وضعت ذكرا ه وهو يسلم الرفيق الرفيق
أهو الفرر الحسن في شر عك والعهد في هواك تموت
حبذا أنت لو وفيت وأجمد ت ولم ينتهك لديك الصديق

غير أن الخطاب العاتب هنا يسقط في فخ المباشرة؛ وهو ما ينتج عنه ترهل في التعبير، وربما كان السبب في ذلك كلاسيكية القالب، وربما السبب هو إطناب الشاعر في تعبيره عن بعض المضامين بطرائق متعددة (انظر الأبيات ٣٩: ٤٤).
لكن خطا بالمحبة هنا لم يخل – كما سبقت الإشارة – من طوابع كلاسيكية واضحة، لعل أبرزها التقاؤه تعبيريا مع الشعراء القدامى وهو ما يمثل ضربا من التناص التعبيري في مثل قوله:

أمن العدل أن يشاكلني فيـ ك جبان عما أريغ فروق
وقصاراه في هواك هوانا أمل فارع ووجه حفيق

وهو قول يحمل ظلالا من خطاب التبني العاتب إلى سيف الدولة لكن الفارق بين الخطابين هنا أن العتاب عند شحاته كان من إنتاج المكان؛ إذ إن الشاعر العاشق لا يقبل أن تساوي في الحب صادق المودة ودعى كاذب الوجد إن هذه الدلالات تعد نتاجا مباشرا لحضور المكان في الخطاب الشعري حيث يتجلى البعد

النفسي والبعد الاجتماعي ليصوغا معا خطاب المحبة " فالإبداع من وجهة نظر نفسية طاقة عقلية هائلة فطريه في أساسها اجتماعية في نمائها مجتمعية وإنسانية في انتمائها"(٩)

وهو بعد لم يخل منه خطاب المحبة في تجربة شحاته الذي دفعه المكان إلى خلط الاجتماعي بالنفسي الذاتي في ثنايا خطابه العاتب إلى معشوقته / المدينة بشأن بعض الظواهر الاجتماعية التي نقدها:

أكـــذا أنـــت للنقـــائض ورد يستوي عنـــده أتقـــى الفســـوق
مـــن مياســـير جـــاهلين أضـــاعو ك وكـــل بمـــا تشـــين علـــوق
ومهما زيل كالضفادع في ظلمـــــ ـــة أقصى ما يســـتطعن النقيـــق
قادهم أخـــرق الخطـــي للـــدنايا وهو منهم بمـــا جنـــاه مســـوق
وشباب غراسه ما زكـــت فيـــك ولا غـــرو فـــالغراس العـــروق

كان المكان في خطاب المحبة عند حمزة شحاته حاضرا على صعيد الفكر والدلالات، كما كان حاضرا على مستوى التوجه الاخلاقي الذي دائما ما يكون حاضرا في التجارب ذات الطابع المحافظ التي يتوخى المبدع من ورائها غايات تتصل بالإصلاح الفكري والاجتماعي وهو وجه لا يمكن تجاهله في خطاب المحبة الذي أنتجه الوله المؤرق بالمكان/ المدينة عند حمزه شحاته.

المرأة/ المكان بين التشظي والتماهي

ينطلق غازي القصيبي في صياغة خطاب المحبة معتمدا على لعبه الاتصال والانفصال.. فذات الحبيبة تشظى إلى ذاتين: المرأة/ والمدينة وسرعان ما يغيب هذا التشظي لتحل محله ذات أخرى جوهرها التماهي بين الطرفين. وتظل الذاتان تمارسان لعبة الاتصال والانفصال. التشظي والتماهي في الخطاب منذ بدئه وحتى منتهاه.

واللافت للنظر في تجربة القصيبي – أنت الرياض همينة فكرة التماهي سواء بين المرأة/ المدينة أو بين الزمان والمكان وقد تداخل الزمان والمكان في علاقة جدلية تجسدت بجلاء في خطاب المحبة عند غازي القصيبي وهو ما يشكل ملمحا أساسيا من ملامح هذا الخطاب.

وبالرغم من حداثة التجربة الشعرية عند القصيبي في مجملها، فإن الشاعر يلجأ إلى أساليب البلاغة القديمة؛ حيث إن القصيدة في مجملها تقوم على ما يشبه فكرة العكس في التشبيه أو ما يسمى التشبيه المقلوب؛ فبدلا من تشبيه المدينة بامرأة يعشقها؛ فهو يلجأ إلى العكس مشبها المرأة بالرياض. وكذلك يتزرع القصيبي بأساليب البلاغة القديمة على مستوى الصورة البيانية وهو ما يطبع خطاب المحبة بسمات الوضوح والإبانة من جانب، ومن جانب آخر حمل الخطاب سمات لغة شاعرية مفعمة بالإيحاء والثراء الدلالي.

١. التماهي بين ذاتين

يوجه الشاعر خطابه إلى ذات مقنعة بذات أخرى

كأنك أنت الرياض

بأبعادها

بانسكاب الصحارى

على قدميها

وما تنقش الريح في وجنتيها

وترحيبها بالغريب الجريح

على شاطئها

وطعم الغبار على شفتيها

إن الذات السافرة هنا هي الحبيبة/المرأة التي يتزرع بها الشاعر لإنتاج خطاب المحبة إلى ذات أخرى مقنعة هي البطل الحقيقي في سياق الخطاب هي المدينة التي تتمظهر في تجليات مكانية شتى : الصحارى/ الريح/ شاطئها / الغبار.

كل هذه التجليات المكانية تدعم توجه الشاعر بالخطاب إلى المكان من خلال ذات أخرى تلعب دور التمويه باحر يؤدي الشاعر من خلال لعبه الاتصال والانفصال فهو يخاطب ذاتين جاعلا منهما ذاتا واحدة تارة وهو الاتصال وفي مواطن أخرى يفصل بين الذاتين لكنه فصل عارض ما يلبث أن يختفي تمارس الذاتان لعبة التماهي وتصيرا ذاتا واحدة لتتلقى خطاب المحبة الذي يصوغه الشاعر واقعا تحت تأثير المكان.

وإذا كانت المقصدية تمثل بعدا مهما في كيان الخطاب فإن خطاب المحبة الذي صاغه القصيبي هنا – رغم ما يتسم به من مراوغة ينطوي على مستويين من الدلالات " أولى: يتجلي في المعتقدات والرغبات التي تكون لدى المتكلم. وثانوي يكون فيما يعرفه المتلقي من مقاصد المتكلم"[١٠] فالمتلقي يدرك من تأمل السياق أن المكان هو مناط المقصدية من الخطاب، ولكن التماهي بين المرأة والمكان هنا أنتج هذا الخطاب المراوغ.

أحبك حتى عيون الرياض
يغالب فيها الحنين الحياء
أحبك حتى جبين الرياض
تظل تلفعه الكبرياء
أحبك حتى دروب الرياض
عناء الرياض صغار الرياض

كلف الإحساس بالمراوغة يتلاشى حنين يأخذ الخطاب في التحول نحو الذات المقصودة/ المدينة/ المكان:

وحين تغيب الرياض
أحدق في ناظريك قليلا
فأسرح في الوشم و الناصرية

وأطرح عند خريص الهموم

إن الخطاب هنا يكف عن المراوغة ويبوح بمقاصده محددا ذاتا مقصودة وذاتا أخرى بديلة ما هي إلا سبيل يتكئ عليه الشاعر لخطاب الذات الجوهرية وهو ما يتأكد من خلال تعداد تمظهرات المكان التي تمثلت في بعض أحياء الرياض وشوارعها الوشم – الناصرية – خريص – كل ذلك كفيل بتوجيه دلالات الخطاب ومقاصده إلى الذات الكبرى المقصودة في الخطاب /المكان / المدينة /الرياض.

والقصيبي – كما سبقت الإشارة – معزم بلعبة الاتصال والانفصال في سياقات خطابه وقد مارسها على مستوى ذاتين يتوجه إليهما الخطاب لكنه في ختام النص يمارس لعبة التشظي والتماهي ببراعة متناهية حينما يولد في الخطاب ذاتا جديدة ثالثة ليحتوي خطاب المحبة ثلاث ذوات: العاشق

المعشوق/ المرأة

المعشوق/ المكان المدينة

لكن خطاب المحبة يصهر الجميع ليتلاشى الكل ويبقى الواحد فالآن العاشقه والآخر المعشوق ينصهران حتى ينتحرا

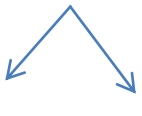

في كيان جمعي هو المعشوق الجوهر/ المكان / المدينة.

وفي آخر الليل يأتي المخاض

وأحلم أنا امتزجنا

فصرت الرياض

وصرت الرياض

وصرنا الرياض

غير أن هناك ملمحا تشابه فيه خطاب المحبة لدى القصيبي مع الخطاب ذاته عند حمزه شحاته وهو حضور العتاب في كلا الخطابين:

أطالع ليل الرياض الوديع
فيبرق وجهك بين النجوم
وفاتنة أنت مثل الرياض
ترق ملامحها في المطر
وقاسية أنت مثل الرياض
تعذب عشاقها بالضجر
ونائمة أنت مثل الرياض
يطول إليها إليك السفر

والعتاب بوصفه فعلا نفسيا يحمل دلالات نفسية على تفاعل الشاعر – في سبيل صوغ خطابه – مع تجليات المكان – يثري خطاب المحبة ويطبعه الصدق ويبعد به عن طائلة التكلف والادعاء.

وبالرغم من مباشرة خطاب العتاب في توجهه إلى المرأة فإن ما سبقت الإشارة إليه من متصدية الخطاب تقود دلالات العتاب من الذات البديلة إلى الذات التي أنشئ من أجلها الخطاب.

جاسم الصحيح والإبحار في مدارات التيه

تشكل خطاب المحبة في إطار الولع بالمكان لدى جاسم الصحيح في أفق مغاير لأفق التجربتين السابقتين؛ فالشاعر يمعن في تجسيد الطابع المحلي للمكان / المدينة وهو ما يفود تحولات الخطاب من بساطة المحلي إلى جلال المقدس.

ويبدو البحث عن المكان في خطاب المحبة عند الصحيح بحثا عن الهوية التي ربما اعتراها الخفاء ومن ثم فهي تصوغ خطاب المحبة بحثا عن التجلي الذي يعد سلاح الذات للإحساس بدفء الهوية في بعض الظروف الاستثنائية وتبدو حتمية العلاقة

بين الذات والمكان في سياق يسيطر عليه الشعور بالاغتراب وهو ظاهرة تؤرق الوعي الشعري حينما تتقطع الأواصر بين الشاعر ووطنه قسرا أو اختيارا وهو ما يدفع بالشاعر إلى مدارات التيه ، لكنه في خضم هذا التيه تتراءى له الأماكن لتشكل خطاب المحبة في سياق الحنين إلى الوطن / المكان لمعانقة الهوية الغائبة التي ضاعت ملامحها في غيار التيه.

فإذا كان الاغتراب يدل على الانفصال بين الذات ومحيطها الاجتماعي – فهو في التحليل الأخير – نتاج يعبر عن أزمة نفسية ينتج عنها " فقدان الجوهر الإنساني الاجتماعي والانسحاق تحت وطأة أيديولوجية مناقضة لواقع فرد ما"(١١) وسواء كانت الذات مسؤولة عن اشكالية بالاغتراب بشدة تمركزها جعل نفسها أو كانت ضحية لأطراف أخرى فإن الذات الشاعرة تقاوم الاغتراب عبر وسائل شتى لعل أبرزها البحث عن الذات من خلال تأكيد الانتماء وتوثيق الهوية. وهو ما تجسد لدى خطاب المحبة الباحث عن الذات في مطلع قصيدة: حبيبتي الأحساء:

إذا انفردت بي
الصحراء كالعرافة الكهلة
وصار الدرب ثعبانا
بطول مسافة الرحلة
وحاولت الصلاة هناك لكن ضاعت القبلة..
أصلي
باتجاه النخل حين تعن لي نخلة.

إن معاناة الذات الشاعرة من الاغتراب جعلتها تلازم السعي في مدارات التيه وفي هذا الوضع المتأزم يتجلى جلال المقدس فيكون اللجوء إلى الوطن بمنزلة العقل التطهري الذي تمارسه الذات التماسا للنجاة:

وحاولت الصلاة هناك لكن ضاعت القبلة

أصلي

باتجاه النخل حين تعن لي نخلة

يمعن الشاعر في الاحتفاء بالرمز المحلي للمكان (النخل – الأحساء) فتتحول النخلة إلى معادل موضوعي للمكان / المدينة / الوطن لكن تشبث الذات الشاعرة بهذا الرمز المحلي في خضم التيه والاغتراب يمنح المكان سلطة مبهرة تصيب الخطاب بتحول حاسم بعد بساطة المحلي إلى جلال المقدس فتضحى النخلة وهي رمز الانتماء المكاني قبلة للصلاة وحائطا تمارس الذات من خلاله صد ما تعانيه من تيه واغتراب وعذابات.

ويلح جاسم الصحيح في سياق خطابه القصير على فكرة المقدس في خطاب المحبة وهو ما يمثل إمعانا في مديح المكان فيجعل المكان / المدينة بعدا أزليا يمتد إلى أغوار سحيقة فينسب الصلاة الأولى التي أداها أبو البشر آدم عليه السلام إلى ترابها الدقيق وهو ما يمنح المكان بعدا من الطهارة بجانب ما يتسم به من بكارة:

هي الأحساء

قبلتي القديمة

والهوى الدائم

وليست بعقة بركت على

صدر المدى الجاثم

أقام – صلاته الأولى على بوغائها آدم

فحلت

في محل الهام من سجادة العالم

إن خطاب المحبة في هذا السياق منهم بالمفردات التي تكرس لفكرة المقدس إمعانا في عشق المكان الذي صاغ الشاعر خطاب المحبة متأثرا به ومن ثم تفاعلت هذه المفردات دلاليا في بنية هذا الخطاب:

قبلتي، أقام – صلاته – سجادة – الصلاة – الألوهية

وقد كان حضور هذه المفردات بما تحمل من دلالات في سياق خطاب المحبة من أسباب تفرد الخطاب الذي اختلط فيه الحب بالصلاة والنخل بالأوراد والرحال بالمسافات والمكان بالزمان.

إن من يتأمل في خطاب المحبة لدى الصحيح هنا يدرك ضربا من التسامي الذي يتضفيه الشاعر على المكان وبالرغم من حرصه الشديد على نعته بالسمود والتقديس والعلو فإنه – في المقابل – حريص على تجسيد بساطته إمعانا في تجسيد طابعه المحلي الذي يتأرجح بين العادي البسيط والإلهي الجليل:

هوت من خاطر

الأملاك أغنية سماوية

تتيه بلهجة البسطاء في عمق

الألوهية

وحين شممت في الأنغام

رائحة نخيلية

عرفت

بأن للأملاك لهجتي الحساوية

عجائبية الصور

ترك المكان أثرا بارزًا على تشكيل الصورة في خطاب المحبة فجاءت الصور متصلة بأبعاد المكان مجسدة ملامحه باقة روحه في أغوار الخطاب.

لكن مدارات التيه التي شكلت ظرفا مكانيا للخطاب بما سواه من صور أمدت الصور بصور جديدة للتشكيل العجائبي يحمل دلالات على ضرب خاص من التعبير الذي يتسم بتجاوز حدود المألوف مصورا عالما " تقطنه التنانين و الأحضة الخرافية والتوابع حيث المعجزات والتحولات لا تنقطع"[١٢]

ووفقا لذلك وجدنا يشبه الصحراء بالعرافة الكهلة ليضفي على الصورة بجانب التشخيص بعدا عجائبيا واضحا، وفي السياق ذاته يصور الصحيح الدرب الطويل بثعبان طويل يرافق خطاه:

إذا انفردت بي
الصحراء كالعرافة الكهلة
وصار الدرب ثعبانا بطول
مسافة الرحلة
وحاولت الصلاة هناك
لكن باتجاه النخل
حين تعن لي نخلة"

إن التصوير هنا – رغم ما يتسم به من طابع عجائبي – ينطلق من عمق المكان حتى يمكن أن نقول : إنه نابع من أبعاد المكان ذاته فالمشبه به هو الطريق تارة والصحراء تارة أخرى لكن بعد الشاعر عن بلاده /المكان / المدينة دفعه إلى الشعور بالتوجس والخوف فكانت الإشارة إلى العرافة ضربا من تجسيد المجهول وضعف الانسان أمام قوى الغيب التي لا يملك حيالها إلا الخوف ومن ثم كان حضور الثعبان هنا موائما للخطاب بما يحمله من دلالات الرهبة والفناء وحينما يجتمع الخوف من المجهول الشعور بالتوجس من القادم فإن الصورة لابد أن تشى بتفاعلات نفسية بالغة الأهمية ؛ لأنها تجسد تضارب الهواجس المتباينة في نفس الشاعر الذي أخرج كل ذلك عبر خطابه مرسوما ليس بالألوان وإنما بالكلمات.

خطاب المحبة عند محمد يعقوب وتأنيس المكان

ينطلق خطاب المحبة عند محمد ابراهيم يعقوب متأثرا بعطايا المكان الثرة التي أسهمت في انشاء خطاب شعري يتنفس ملامح جازان من شواطئها إلى نخيلها إلى

ثراها حتى بلغ هذا الخطاب حد الإشارة إلى انصهار الذات الشاعرة في بوتقة عشق كبير صارت فيه المدينة/ المكان بشرا تحددت ملامحه وتشكلت قسماته عبر النص الشعري الذي نحتت أبعاده في إطار شعرية المكان بأبعاده الظاهرة والخفية في الوقت ذاته.

ويكتسي المكان/ في جازان أهمية جلى على صعيد إنتاج الخطاب الشعري؛ فقد أنجبت جازان عديدا من الشعراء على امتداد التاريخ الشعري الحديث والمعاصر وهو ما يحمل دلالة على أثر المكان عموما في بناء الخطاب الشعري. وقد أشارت دراسات عديدة إلى وفرة الإنتاج الشعري الذي اتخذ من جازان قاعدة له، وهو ما يدل على وفرة الشعراء وسيرورة الشعر في هذه المنطقة التي احتضنت عددا كبيرا من التجارب الفنية ذات المستويات المتقاربة(١٣)

وعلى صعيد الخطاب الشعري عند محمد يعقوب على وجه الخصوص كانت جازان المدينة/ المكان حاضرة بوضوح في خطرات هذا الخطاب لكن الملاحظ في هذا الخطاب أنه يؤاخي بين الشعر ذاته والمكان وكأن الشاعر يحدد لقارئه أبرز العناصر التي شكلت تجربته الفنية والانسانية بوجه عام فكان شعره حديثا عن ثنائية: الشعر والمكان.

وبعبارة أخرى : يمكن أن نميز في خطاب يعقوب هنا بعدا بالغ الخصوصية وهو: حديث الشعر عن الشعر ولعل الباحث يتساءل بهذا الصدد هل حضر الشعر في سياق خطاب المحبة عرضا؟ أم أن حضوره كان تلبية لدوافع نفسية وهو رجس ذاتية فرضت نفسها على الشاعر فاستجابت لها قريحته تأثرا بقانون التداعي الذي يدفع الشاعر إلى استدعاء الأشياء المحببة إلى نفسه؟ فكان المكان هو الذي استدعى الشعر أو أن الشعر هو الذي قام باستدعاء المكان وأيا كان الأمر فإن الخطاب الذي يصوغه يعقوب في هذا السياق يمعن في تجسيد المحبة سواء كانت هذه المحبة موجهة إلى الشعر أو إلى المكان وبالأحرى فإن المحبة هنا موجهة إلى الشعر والمكان معا.

ولعل الملاحظة الأولية التي تلفت نظر الباحث هنا هو تحويل الشعر بوصفه محبوبا أول في هذا النص إلى مكان وهو ما يبدو من استخدام اللغة على نحو خاص يتسم به يعقوب في مجمل إنجازه الشعري فهي لغة شعرية تجمع بين كلاسيكية الأداء الموسيقي وحداثة التجربة والمضمون والرؤية:

أدنو إليه عصيا كان أم رغبا

وأتقيه إ ذا ما خف وانسكبا

الشعر مرآتي الكبرى ألوذ به

أرى على الماء ما يمحى وما كتبا

إن التذرع بحرف الجر إلى في هذا السياق يجسد الفن، ويجعل من الشعر جسدا له أبعاد مكانية لكن تجسيد الشاعر للفن لا يخلو من أثر المكان؛ فهو يوظف الطبيعة البحرية في جازان ليشكل تلك الصورة الذكية التي يتمظهر فيه الشاعر بحرا يتماهى مع فكرة المرأة على جامع الشفافية والنقاء الذي يجمع بينهما فأكنه أحال البحر في جازان إلى مرأة كبيرة يقعي الشاعر قبالتها ليرى في صفحتها ما لا يراه غيره يرى المعلوم والمجهول الحاضر والغائب المصرح به والمسكوت عنه وهو ما يثير تساؤلات شتى حول المسافة بين الشعر والفكر وما بينهما من لون شاسع، فكان الشعر وما يكتنبه من خيال يغاير عالم الفكر الذي يتسم بالوضوح والمباشرة، لكن مهددة الشاعر تكمن في التوسط بين الجوهرين والبراعة في التعبير عنهما معا في سياق فني أصيل فالشاعر في إشارته إلى الـــتأمل الذاتي الذي هو فعل أصيل من أفعال القصيدة يعلمه أنه يرى الغائب كما يرى الحاضر. وهو ما يقودنا إلى أن خطاب المحبة يكرس للشاعر بوصفه عرافا أكثر من كونه بلبلا صداما وهو يعيد إلى الأذهان مقولة أحد النقاد "هل الشاعر بلبل يطرب ويشجي بأفراح قليه وأحزانه أم تراه عرافا يهذي بأفراح مجتمعه وأحزانه وبأفراح الانسانية وأحزانها"(١٤)

وهو ما يدفعنا إلى البحث عن دور المكان في إثارة الفكر لدى الشاعر واتجاهه إلى معالجة قضايا بعينها وهو ما يدل على الأثر العميق للمكان على التجربة الإبداعية بوجه عام.

إن يعقوب في هذه التجربة يطرح تصورا دقيقا لعلاقة الشعر بالفكر في ضوء المكان وهو ما يتجسد في المقطع التالي:

الشعر مرآتي الكبرى ألوذ بـــــــــه أرى على الماء وما يمحى ومـــــا كتبا
على يد الشاعر فاضت كأس أسئلتي و لم أفـــــق بعد من تعتيقها عنـــــبا
أفك لغز الأغاني البكر في لغـــــة شفت عن الروح حسب الاغنيات صبـــا
أســـــــر للبحر باسمى لم أذق وجعا إلا كتبت عـــــلى جدرانه شغبا

يجسد هذا المقطع جدلية المكان والذات والشعر وهي جميعا تلخص جوهر تجربة الشاعر ولب موقفه الفكري والفني في هذا الخطاب، لكن المكان هنا أشد حضورا وأشد فاعلية في إثارة الفكر والفن غير أن تمظهر المكان بالبحر ربما أدى إلى انتقال الذهن إلى عوالم مغايرة لكن الواقع سرعان ما يقود السياق القرائي إلى إطاره الواضح فالبحر/ المكان يمارس على المكان سلطة تدفعه إلى ضرب من الطقوسية تدفع الذات الشاعرة إلى البوح بالأسرار في لغة تشق عن الروح وما يتفاعل في دروبها من وجع ، ذلك التصور الذي خرج به التحليل للمقطع السابق رغم – مابه من تأويل- فهو لا يبعد مطلقا عن سلطة المكان وأثرها في صياغة خطاب المحبة الذي كان واحدا من تجليات أثر المكان على الذات الشاعرة كما سبقت الإشارة " والحقيقة أن تأويل عمل أدبي أو غير أدبي لذاته وفي ذاته دون التجلي عنه لحظة واحدة ودون إسقاطه خارج ذاته لأمر يكاد يكون مستحيلا"[١٥]

وهذا الضرب من الانفصال عن النص الشعري أمر قد مارسه الشاعر ذاته في سياق خطابه فهو ينفصل عن نصه؛ ويبقى خارج حدوده بالفعل – ثم يعود ٰلى عمق النص فيلتحم بالتجربة مبررا أبرز العوامل التي شكلت خطابه المتصل بالمكان

وفي عموم النص يتجلى المكان عبلا العديد من التمظهرات فهو: المدينة الكبرى/ جازان وهو الجزيرة والربى والأرض والرمل:

أنا ابن جازان مـــــا عتقت بصلتي وكبريائي من تاريخها شربـــا
قصائدي الفل تشدو كلما ضحكت جزيرة وانتشت بالعاشقين ربى
أوقدت عمري لهذي الأرض قد كشفت
أصابعي في امتداد الرمل ما احتجبت

ولعل الإمعان في ذكر تمظهرات المكان على هذا النحو لا يخلو من دلالة على خصوصية العلاقة بين الشاعر والمكان وهو ما انعكس بوضوح على صياغة خطاب المحبة الذي تأنس وتأنث في هذا الخطاب كما كان الولع الشديد الذي تفوح رائحته من بنية هذا الخطاب أبرز العناصر التي تشكل كم خلاله تأنيس المكان أو تأنيثه:

أوقدت عمري لهذى الأرض قد كشفت أصابعي في امتداد الرمل ما احتجبا
أصـــــــــوغ نبضي من إيقاع ملهمتي وأصـــــــد الرمل بالأوراد معتصبا

إن خطاب المحبة هنا يترح إلى الوضوح التام ؛ إذ يجعل الشاعر المكان/ المدينة معشوقة ملهمة تدفعه إلى انتاج هذا الخطاب لكن فكرة التقديس – كذلك – لم تغب عن الخطاب هنا وإن كان حضورها حضورا باهتا من خلال دلالات لفظ " الأوراد" بما يحمل من ظلال دينية ولكن الأبرز من ذلك في خطاب المحبة أن الشاعر يقرن بين الولع الشديد والعجز عن التعبير عن هذا الولع بالمكان وهي درجة من العشق يسعى خطاب المحبة إلى أن يمحضها ما يجعلها تفوق العادي لترقى إلى مرتبة أعلى من العشق الروحي الذي تملك سطوته الذات الشاعرة بخطابها العاشق:

قصيرة هذه الأرواح ما اكتملت إلا بلحن لهذه الأرض قد طربا
كل البلاد أقامت عرش سطوتها وأنت عرشك في أرواحنا انتصبا
يا سيدي والكلام العذب يغمرني من كل صوب و لم أبلغ به سببا

سدى أطير عصفور الكلام و لم يصل ذراك ويبقى القلب منتهبا
نحب هذا الثرى شمسا وأغنية ونرخص الروح في أرحائه قربا

لكن البعد الديني الذي بدا باهتا يعود ليطل برأسه مرة أخرى في خطاب المحبة وهو ما جسده الشاعر في البيت الأخير معربا عن مدى حبه للمكان/ المدينة التي – في سبيلها – يقدم روحه قربانا تضحية وفداء ومحبة ومودة. إن المكان بتمظهراته يهيمن بشدة على السياق مكاملة من خلال الألفاظ التي تحمل الدلالات المتعددة على تفاصيل المكان.

صوب – ذراك – الثرى – شمسا – أرجائه لكن الشاعر الذي يبدو مغرما بأدق التفاصيل التي تربطه بالمكان – في المقطع الاخير من خطاب المحبة يفيض به الوجد الطاغي حتى يلوذ بالتصريح:

فدى لجازان كل العمر فاتنه مخالها الفن من عشب الضلوع ربا
قيثارة الشعر غنت كل سنبلة على شجاها وأحيت كفها الأدبا
أنا لبن جازان حتفي خلف (مقلمة) لم تسلم الروح لكن لم تشح عتبا
صبية آمنت بالشعر فابتسمت واساقط القلب من ضائها رطبا
تبعتها لم أعد أدري بخاتمتي وهل مع أكب إلا أن تضيع هبا ؟!!

إن هذا المقطع الاخير يمثل القطعة المتوهجة في بناء الخطاب فقد حملها الشاعر أقصى ما يمكن من دلالات تشي بعمق الأواصر بين المكان / المدينة والشعر، ليقسم توازنا بارعا بين ختام النص وعنوانه فيظهر أثر المكان – من جديد في بناء الخطاب الشعري بما ينطوي عليه من محبة؛ فقيثارة الشعر التي حضرت في عنوان النص ما هي إلا جازان/ المكان / المدينة/ التي تمارس سطوتها على الكل فيتحول شعرا: السنابل ، البشر ، النخل والرطب كل شيء ليتحول – تحت سطوة المدينة الشاعر إلى مفردات في بناء خطاب شاعري موغل في الرهافة والعذوبة الكل يتماهى في واحد الشاعر العاشق ينسى خطاه على درب هذه المدينة الصبية التي

منحت روحها للشعر – دن أن يأبه للمصير ودون أن يبحث عن المال وهو تصريح بالانصهار بين الذات الشاعرة والمدينة الشعر/ المكان المعشوق صاحب السطوة على النص والرؤية والاشياء.

إن هذا المقطع الأخير في خطاب المحبة يحمل تصريحا بأن المكان هو الذي يقود خطاب المحبة وهو الذي يوجه تحولاته ويتولى تشكيل الرؤية التي يحملها فالمكان هنا هو مخال الفن وموطن الشعر ومحرك التجارب وباعث الهواجس ومنشئ الخطاب بما فيه ومن يتصل به.

و لم يغب التناص عن صوغ خطاب المحبة في هذا الختام ؛ فهو إحدى ذرائع إنشاء النص وتكوين مساراته بوصفه بناء ليتشكل من خلال تفاعله مع النصوص أخرى على الصعيد اللفظي أو الايديولوجي وهو ما يجعل النص قائما "على سلسلة من العلاقات بالنصوص الأخرى سواء تم ذلك بالحوار أو التعدد أو التداخل أو الاقتصاص"(١٦)

وقد كان التناص في هذا الخطاب تناصا ذا طابع ديني والتناص الديني يمثل أهمية كبرى من بين أنواع التناص المختلفة ومصادره، ومرجع ذلك إلى مكانة الدين في حياة المؤمن وتلك حقيقة مقررة لا جدال حولها ولا مشاحة فيها وقد أشار ديكارت إلى أن الدين " هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية سامية"(١٧)

وهو بجانب ذلك يمثل بعدا أساسيا في تشكيل شخصية الإنسان المؤمن وتكوين ماهيته لأن الوازع الديني " إنما يكمن في أعماق كل قلب بشري وهو يدخل في صميم ماهية الإنسان مثله في ذلك العقل سواء بسواء"(١٨)

من أجل تتسرب الإثارات التي يتقاطع فيها الشاعر مع المصدر الديني على اختلاف تجلياته – إلى النص الشعري سواء كان ذلك يتم عن وعي أو دون ذلك.

وفي خطاب المحبة لدى ممد يعقوب يتجلى النص الديني الذي بوظفه الشاعر ليكرس للغاية ذاتها التي أنشئ من أجلها النص وهي تجميد المكان:

صبية آمنت بالشعر فابتسمت واساقط القلب من حنائها رطبا

ففي ذلك التوظيف يتناص القول السابق مع قوله تعالى:

"وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا"(١٩)

وقد تحقق التناص هنا على مستوى التعبير اللفظي الذي يمثل تفاعلا مباشرا مع النص القرآني لكن السياق الذي حضر فيه التناص يحمل دلالات على أثر المكان في صياغة خطاب المحبة فالصبية التي احتضنت بهاء الشعر الديني تمارس سحرها على تكوين الشعراء الذين يمتحنون من المكان ويعيدون تشكيل ملامحه فيما يساقط من قرائتهم.

الهوامش والإحالات :

(١) الاعمال الكاملة محمود درويش، :٣٤

(٢) جماليات المكان، جماعة من الباحثين، عيون المقالات ط:٢، الدار البيضاء ١٩٨٨ : ٣

(٣) المكان في الشعر السعودي ١٤٠٠-١٤٣٠- بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير إعداد: عبدالخالق بن خضران الزهراني جامعة أم القرى مكة المكرمة ١٤٣٦: ٣١

(٤) ديوان أحمد عبدالمعطي حجازي، دار العودة ، ط:٢٣ بيروت ١٩٨٢: ١٠٨

(٥) نفسه ، ط:٣ ؛ بيروت ١٩٨٢: ١١٠

(٦) المدينة في الشعر العربي المعاصر د.مختار علي أبوغالي، عالم المعرفة الكويت ١٩٩٥: ٢٩

(٧) ديوان صلاح عبدالصبور ، دار العودة ط:١ ، بيروت ١٩٧٢: ١٩٨

(٨) العنوان وسمو طبقا الاتصال الأدبي د. محمد فكري الجزار، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨: ١٩

(٩) سيكولوجية التعهد والإبداع ، ماجد موريس ابراهيم دار الفارابي ط:١ بيروت ١٩٩٩: ٥٤

(١٠) تحليل الخطاب الشعري د.محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي ص١٥.

(١١) المعجم المفصل في الأدب اعداد محمد التويجي دار الكتب العلمية ط:٢ بيروت ١٤١٩/ ١٩٩٩ ١: ١١٤

(١٢) العجائبية في رواية ليلة القدر، د.عبدالملك مرتاض – مجلة كلية الأداب وجدة ع:٤ ١٩٩٣ : ١٠٧

(١٣) انظر : لمحات عن الشعر والشعراء في منطقة جازان العهد السعودي من عام ١٣٥٠ – ١٤١٠هـ إعداد الاستاذ حجاب بن يحيى الحازمي، بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين المنعقد في مكة المكرمة ٥ –٧ سعبان ١٤١٠هـ جامعة أم القرى ١٤٢٠/ ١٠٠ جـ :١٠ ص ٣٣٦

(١٤) كتابة الذات دراسات في وقائعية الشعر، حاتم الصكر، دار الشروق للنشر والتوزيع ط:١– عمان ١٩٩٤ :١٧١

(١٥) الشعرية تزفيطات تودروف ترجمة : شكري المبخوت ورجاء بن سلامة دار توبقال للنشر ط: ٢ الدرار البيضاء ١٩٩٠ – ٢١

(١٦) التناص االشعري قراءة أخرى لقضية السرمات د. مصطفى السعدني و منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٩١ : ٧٨

(١٧) علم الاجتماع الديني د.عبدالله الخريجي، ط: ٢، حدة ١٤٤٠ / ١٩٩٠ :٢٨

(١٨) المعتقدات الدينية لدى الشعوب جفرى بارندر ترجمة: إمام عبدالفتاح إمام ، عالم المعرفة – الكويت ١٩٩٣: ٧

(١٩) سورة مريم :٢٥